

الثورات العربية بين التبعية والاستقلال محاولة حرة لفهم ما يجري

نزيه أبو نضال *

الهول الذي يعربرد على مساحة (الثورات) العربية يجعل القلب يشتعل أو ينفجر غضباً أو حزناً.. فيما نحن نحتاج الى عقل بارد لاختراق كل هذا الضباب الأسود الكثيف الذي تطلقه فضائيات ومواقع وصحف وأقلام، ومعلقون مخلصون ومأجورون. ولن نتمكن من فهم كل هذا الا اذا امتلكتنا مجرد ضمير حر، وعودة إلى بديهياتنا الأولى! ولعلنا نبدأ بتسجيل ما هو ثابت ومتفق عليه! (أو هكذا كان):

النظام العربي، ولا استثنى أحداً، على رأي مظفر النواب، نظامٌ مستبدٌ وفسادٌ وقامعٌ وتابعٌ ونهَابٌ، ومن حق جماهير الشعب أن تطلق ألف ثورة للاطاحة به، لصياغة مستقبل أجمل، حر وعادل وديمقراطي.. ولقد حاولت الجماهير أن تفعل ذلك أو كادت! ولكن ما الذي حدث بالضبط فيما سمي بالربيع العربي، وفق التوصيف الغربي لربيع براغ؟ فهل هذا الربيع ثورة أم احتجاج ثوري أو انتفاضة أو هبة شعبية أم تمرد أم تحرك مطلبى؟ أم أن ما حدث مجرد انفجارات عنف عفوية أو شبه منظمة، وربما تداخل بعضها مع مشاركات عسكرية أو شبه عسكرية! وقد يكون قد رافق ذلك أو مهد له أو لحق به تداخلات أجنبية مصنعة خارج الحدود، مباشرة أو بالواسطة! فهل جاءكم حديث بيرنار هنري ليفي؟! أو متواليات مؤتمرات أصدقاء سوريا من عرب وأجانب؟ بالطبع لا يوجد توصيف جامع مانع يصح على كامل مساحة التحركات العربية، ولا حتى على جزء منها، بفعل حراكها المستمر، ونتائجها المغايرة للمقدمات. وبالتالي فهي تباعد عن التعريف اللينيني الذي يرى بأن الثورات هي "مهرجانات المضطهدين الذين يعملون كصناع نظام اجتماعي جديد".. ذلك أن الثورة أساساً تعني: وجود قيادة منظمة وبرنامج ولو بالحد الأدنى (الثورة الفرنسية، ١٧٨٩) أو بالحد الأعلى (الثورة البلشفية، ١٩١٧ أو الثورة الكوبية، ١٩٥٩).

* باحث من الاردن

وقد قارب المفكر المصري سمير أمين ما جرى، في وقت مبكر، حين وصف حركة ٢٥ كانون الثاني (يناير) ٢٠١١ بالقول: " تبدو لي الحركة انطلافاً ثورياً قد يتحول إلى مد ثوري، لا أكثر. فما حدث هو أكثر من مجرد انتفاضة أو فورة، يعود بعدها المجتمع إلى ما كان عليه قبلها، أي أكثر من حركة احتجاج، لكنه أيضاً أقل من ثورة". (١) وقد تسعف عملية قراءة سياق ما حدث وتزامناته، خلال عام كامل بإدراك أن الوطن العربي كان يتلملم فوق بركان، وقد جاء اشتعال البوعزيزي غضبا في تونس (١٧ كانون أول / ديسمبر ٢٠١٠) ليشعل النار في السهل كله.. ولم تكن صدفة أن يقدم حوالي ٥٠ شاباً عربياً على احراق أنفسهم في احتجاجات مشابهة، خلال عام ٢٠١١ فقط.. فكان أن اندفع الملايين إلى ميادين العواصم والمدن العربية، من بينهم ٢٢ مليون مصري، خرجوا في يوم واحد.. فكان أن هرب بن علي بعد شهر الى السعودية (١٤ كانون الثاني/ يناير ٢٠١١)، وتحنى مبارك بعد ١٨ يوماً (١١ شباط / فبراير ٢٠١١) وذلك في زمن قياسي.. فيما شهدت اليمن، التي اندلعت ثورتها يوم سقوط مبارك، نصف سقوط لنظام عبد الله صالح، (٢٣ تشرين ثاني/ نوفمبر ٢٠١١). أما البحرين التي شهدت حراكاً بعد ثلاثة أيام من ثورة اليمن (١٤ شباط / فبراير ٢٠١١) فلم تجد من ينصره، فيما هبت لنجدة نظامها قوات درع الجزيرة (s o s) ثم بعد ثلاثة أيام أيضاً، أي في ١٧ شباط/ فبراير ٢٠١١، انفجرت الثورة الليبية في بنغازي، ولكنها ستحتاج الى دعم الناتو الأمريكي، الذي قام بقتل ٥٠,٠٠٠ لبيبي، بينهم معمر القذافي (٢٢ آب / أغسطس ٢٠١١).

أما سوريا التي انطلقت شرارة ثورتها في ٥ شباط/ فبراير ٢٠١١، فقد دخلت في دوامة أخرى والتباسات استثنائية، وتحتاج الى تفصيل خاص.. فيما شهد الأردن موجة احتجاجات ابتدأت في ١٤ كانون الثاني/ يناير ٢٠١١، واستمرت متقطعة، وكأنها تنتظر مع حماس غزة، (التي غادرت دمشق إلى قطر)، ومحاولات استكمال القوس الاخواني الممتد من استنبول الى تونس، مروراً بدمشق وعمان والقاهرة وطرابلس. أما في السعودية فقد انطلقت مجموعة احتجاجات متفرقة بدأت يوم الخميس ٣ آذار/ مارس ٢٠١١، خصوصاً في القطيف في المنطقة الشرقية، متأثرة بموجة الاحتجاجات العارمة التي اندلعت في الوطن العربي، وقاد هذه الاحتجاجات شبان سعوديون للمطالبة بإطلاق السجناء وبإصلاحات سياسية واقتصادية.

هذه (الثورات والانتفاضات) تميزت بسمات أساسية:

أولاً: مشروعيتها الثورية والتاريخية ضد أنظمة فاسدة وقامعة وتابعة ومتخمة، في مواجهة جماهير محرومة من الرغيف والحرية والديمقراطية والعدالة والكرامة الوطنية، يكفي فقط أن نشير إلى أن متوسط نسبة البطالة في الوطن العربي وصلت الى أكثر من ٢٥٪. فيما ملايين الشباب المهاجرين يركبون الأهوال ومذلة السؤال، بحثاً عما يقبضت العيال (كشف الجهاز المركزي المصري للتعبئة العامة والإحصاء أن أعداد المهاجرين من مصر إلى دول العالم المختلفة خلال الفترة من ٢٠٠٦ إلى ٢٠١٠، ارتفعت بنسبة ٨,٥٥ ٪). فيما انخفض عدد المهاجرين في العام الأول للثورة المصرية بنسبة ١٣٪. (٢) ومن هنا لم يكن غريباً أن تتلخص مطالب الملايين العربية بشعارات: "عيش، حرية، عدالة اجتماعية". وللوصول الى ذلك ارتفع الشعاران: "ارحل" و"الشعب يريد اسقاط النظام".

ورغم وضوح البعد الاقتصادي والطبقي للحراك الثوري، إلا أن هذا البعد لم يلبث أن تراجع تحت ضغط المطالب السياسية والانتخابية والاعلانات الدستورية، وذلك بفعل المكوّن الاجتماعي للطليعة الشبابية الليبرالية من جهة، وبفعل الدور الحاسم للبرامج الاسلامية التي لا تختلف في جوهرها عن طبيعة البرامج الاقتصادية للأنظمة التي أسهمت باسقاطها، خاصة في مصر وتونس.

ثانياً: ولعل ما أسهم في انفجار هذه التحركات، رغم غياب القوى والأحزاب المنظمة (باستثناء الإخوان والسلفيين) أن المجتمعات العربية هي مجتمعات شابة.. فالشريحة العمرية من (١٥-٤٠) عاماً أصبحت هي الغالبية العظمى في التركيبة السكانية العربية.(٣) فكان أن تقدم الشباب الذين يعانون من ارتفاع معدلات الفقر والبطالة والهجرة، لقيادة موجات الحراك الثوري، مستفيدين من معرفتهم بوسائل الاتصال الحديثة، مثل المواقع الالكترونية والشبكات الاجتماعية للتواصل (الفيس بوك والتويت والايمل) حيث أصبح الفضاء الالكتروني ساحة كاملة للحوار، وأداة للتغيير والاحتجاج، ولتنسيق في التحرك وتنظيم التظاهرات والاعتصامات، كما حدث عشية ٢٥ كانون ثاني / يناير ٢٠١١، في ميدان التحرير بالقاهرة. وقد اعترف وزير المالية الأردني الأسبق الدكتور محمد أبو حمور بأن "ارتفاع معدلات الفقر والبطالة بين الشباب العربي كانت من الأسباب الرئيسة لحدوث الربيع العربي، يضاف الى ذلك ضعف المساءلة والشفافية واستشراء الفساد، وانخفاض التجارة البينية والاستثمارات العربية داخل الوطن العربي، وغياب العدالة في توزيع الثروات".(٤)

ثالثاً: إن تغوّل نظام العولمة وتفاقم الأزمات البنوية للرأسمالية يفرز ويكرّس العديد من الظواهر الاقتصادية التي يصفها د. جوزيف ستيجلتز، الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد، "بأنها غير مقبولة أخلاقياً وغير مستدامة سياسياً، فيما يشبه النبوءة لقيام الموجة الحالية من الثورات التي كان فقدان شرعية نظمها مرتبطاً في احد أبعاده بالشعور باختطاف الدولة واستخدامها لصالح فئات ومصالح محدودة مع إهمال السواد الأعظم من مواطنيها". (٥) وقد تنبأ كارل ماركس مبكراً ومنذ أواخر القرن التاسع عشر، بأن لا حل لانقاذ الاقتصاد البريطاني من أزماته سوى بـ (الرافع الايرلندي). (٦)

ومن هنا بالضبط فإن تجدد سعار النهب الاستعماري لثروات العالم في القرن الواحد والعشرين يصبح أمراً مفهوماً، فليس هناك من خيار آخر، كي يعالج الغرب الرأسمالي، بقيادة الدولار الأميركي، أزماته الاقتصادية ومديونته الهائلة بقياسات التريليون، وكذلك لفرض سيطرته الاستراتيجية على منطقتنا والعالم، فكان أن تحركت جيوش وأسلحة الناتو نحو مصادر النفط (خطوط الغاز في أفغانستان، وإلى العراق، أكبر احتياطي نفطي في العالم، ثم إلى النفط والأرصدة المالية الليبية، والآن باتجاه سوريا، التي تقدر هيئة المسح الجيولوجي الأمريكية أن حوض بلاد الشام، ويشمل ذلك المياه السورية، يحتوي على احتياطيات من الغاز الطبيعي تقدر بحوالي ١٢٢ تريليون متر مكعب.. (٧). فيما يعتقد مجلسيو استنبول واثلافيو قطر أن الغرب يمدّمهم بالسلاح والمال من أجل الحرية والديمقراطية والاصلاح، ومجاهدو النصر أن هذا الدعم الأميركي هو من اجل إقامة امارة الظواهري الاسلامية!! أما في مالي فنجد القوات الفرنسية المدعومة من الناتو الأميركي تهب لانقاذها! من ارهاب القاعدة، التي

تدعمها في سوريا!! فيما هي في واقع الحال ليست معنية سوى بنهب خيرات مالي التي تتمثل اساسا في ٥٢ طنا من الذهب سنويا (البلد الثالث من حيث التصدير) واستغلال مخزون اليورانيوم، والمقدر ب ١٠٠ مليون طن! هذا فضلا عن النفط والغاز والقطن.(٨)

لاحظوا أن القوات الأميركية والأطلسية لا تتحرك نحو البلدان الفقيرة كالصومال، رغم قرصنة البحار، أو إلى اليمن والباكستان، ربما باستثناء ارسال طائرات بدون طيار أبيض، حتى لا يتعرض دمه الأزرق للخطر.

غير أن الرأسمالية العالمية الساعية لحل أزماتها الاقتصادية، وعلى رأسها الليانكي الأميركي، وهو في ذروة صور غبائه مع بوش، كان يهرب من تحت الدلف إلى تحت المزراب، أو كمن يعالج الأزمة بكارثة.. إذ بلغت كلفة حربه على أفغانستان (٧ تشرين أول ٢٠٠١) والعراق (٢٠ آذار ٢٠٠٣) وحدهما ٦ تريليون دولار، وفق تقرير أعدته جامعة هارفرد الأميركية (٩) .. فكان أن انفجر زلزال الأزمة الاقتصادية في أميركا (أيلول، ٢٠٠٧)، ثم لتبدأ توابع الزلزال تضرب الدول التابعة للدولار، ومعها الدول الأكثر ضعفاً، في منطقة اليورو (اليونان، إيطاليا، اسبانيا، البرتغال، قبرص).

لقد تفجرت وقائع الربيع العربي فيما بدا وكأنه اتجاهٌ مضادٌ أو مغايرٌ للوقائع التي أعقبت ١١ أيلول ٢٠٠١، والتي شكلت مفصلاً نوعياً على المستوى الكوني والتاريخي لشرعنة التدخل الأميركي وتوابعه الأطلسية في شؤون دول العالم، وخاصة في بلادنا العربية والإسلامية، وتشغيل منظمات المجتمع الدولي (مجلس أمن ومحاكم دولية) لإيقاع العقوبات عليها.. وصولاً لاحتلالها عسكرياً، ونهب نفطها وخيراتها، ومصادرة أموالها، بقرار دولي إن أمكن، كما في أفغانستان وليبيا، أو بدونه، كما في العراق، وليس أسهل من اختلاق الذرائع في كل مرة.. فهل جاءكم حديث الإرهاب وأسلحة الدمار الشامل! وهل تذكرون الجمره الخبيثة!! والآن جاء موعد استخدام النظام السوري للأسلحة الكيماوية!.

إذا كان ما يفعله الذئب أو اللص مفهوماً.. فمن غير المفهوم، خاصة بعد تجربة مليون شهيد عراقي، وسط حصار الموت وآلة القتل وصواريخ الكروز، وتفتيت العراق إلى طوائف وإثنيات متحاربة، أن نسمع أصواتاً بين ظهرانيا، حين تتصادم مع أنظمتها القمعية، تهتف: وا..أطلساه.. وا.. أميركاه، وكأن مس كلينتون هي الأم تيريزا! أو أن سيد البيت الأبيض هو سانتا كلوز الأسود، يرسل هداياه مع طائرات النانو لأطفال طرابلس أو دمشق!!..

فيما مضى، حين كان يستعين أحدهم بالأجنبي كان يتسلل خفية من القلعة، كي يدل الأعداء على المداخل السرية لاحتلالها.. أما الآن فإنهم يفعلون ذلك عبر الصحف والبيانات والفضايايات، وتذهب الوفود المعارضة، وهي بكامل زيتها الرسمي، إلى واشنطن لتناشد السيد بوش أو أوباما كي يأمر قواته العسكرية بالتحرك، ويعودونه بأن يستقبلوها في بلادهم بالأرز والورود، أو هم يستعطفون صاحب القرار، كما فعل ذات وفد سوري، بإصدار فرماناته لمنع السلاح عن سوريا أو الحيلولة دون تصدير النفط منها، وتشديد العقوبات عليها، وإحالة أوراق حكامها إلى مفتي محكمة الجنايات الدولية الذي طارد البشير، إلى أن قبل بتقسيم السودان فصار المحكمة في خبر كان.. بل هناك، كما قلنا ذات مقال (١٠) من طالب طائرات النانو بفرض مناطق عازلة وبأن تقوم بقصف طائرات النظام السوري، حتى قبل أن تطير. بل أن بعض مظاهرات

سوريا رفعت يافطات s.o.s تدعو قوات درع الجزيرة للتدخل، وهم يعلمون يقينا بأنها لا تتدخل بدون أوامر السيد الأميركي.. لاحظو كيف أن أحفاد يوسف العظمة و ابراهيم هنانو و سلطان الأطرش يستغيثون بالناتو، كي تتولى قمع النظام السوري! ونصرة نصرته وجيشه الحر. أو تراهم، مثل (ثوار) بنغازي و(أحرار) العراق يستغيثون بالناتو (المخلص) ليسقط لهم الطغاة ويجلسهم على كراسي الحكم! وله ما شاء من نفط واستثمارات وأرصدة في بنوك الغرب، تقاس بالمليارات! فهل ثمة من المضحكات المبكيات ما يفوق ذلك!

في أعقاب ١١ أيلول الأميركية باتت ظاهرة الاستقواء بالأجنبي متكررة في بلادنا، ويلجأ إليها في الغالب ثوار الخارج الذين فروا بجلودهم من سياط جلادهم، و قمع أنظمتهم في الداخل، وكثيرون غيرهم غادروا أوطانهم بحثا عن فرص أفضل.. فكان أن وجدوا ضالهم بثورات الربيع العربي.. فاشتغلوا كعزاي مجالس وائتلافات، لدى الباب العالي أو البابا الفرنسي أو العم سام الأميركي، أو اكتفوا بمجرد مقاولي سلاح ومسلحين ومروجي برامج وفضائيات لدى مزاريب النفط والمال.

ويكفي فقط لفهم خطورة ما يحدث وبشاعته أن نقرأ جوانب من تحرك هذه المعارضة، ونكتفي بأن نشير هنا إلى لقاء خطير عقد في قاعة سينما سان جيرمان بباريس (٣ تموز ٢٠١١)، بدعوة من الصهيوني الفرنسي بيرنار هنري ليفي، وضم مجموعة من الشخصيات السورية وأخرى فرنسية، وكان من ضمن مدعوي مؤتمر باريس الكسندر غولد فارب النائب السابق في الكنيست الإسرائيلي عن حركة تسوميت العنصرية، ومساعد وزير الدفاع الإسرائيلي أيهود باراك، أما الحضور من الجانب السوري فكانوا ثمانية من مجلس استنبول منهم: عمر العظم ولما الأتاسي وأديب الشيشكلي، والأهم مشاركة ملهم الدروي مسؤول العلاقات الدولية في جماعة الإخوان المسلمين، وحول دور الصهاينة في عقد المؤتمر قال: "إن ما يهمنا أن هناك منبراً نتحدث من خلاله". أما جيل هرتزوج، مدير الاحتفال، فقد رد على اعتراض سورية على وجود صهاينة في المؤتمر: "إن الصهيونية ليست تهمة، إنها مفخرة". (١١)

ولم تختلف مواقف وخيارات هذه المعارضة عن الأنظمة الاخوانية في مصر وتونس التي وصلت الحكم عبر (صناديق الاقتراع) ولكن كي تستجدي صناديق النقد الدولية ومجموعة الثمانية والقروض الخليجية، المغمسة "بالربا الحرام"! أو هي توجه رسائل الغرام للصدیق الوفي بيريز، فيما كان الاخوان قبل ذلك يخونون من وقّع كامب ديفيد (السادات) أو من وافق عليها (مبارك)، وقد تستقوي قيادات أخرى، كراشد الغنوشي التونسي، رئيس حركة النهضة الإسلامية، باللوبي الصهيوني الأميركي، فيصرح في عقر معهد الإيباك في واشنطن! بأن "لا عداء للصهيونية في الدستور الجديد" (١٢)

فلَم كانت (الثورة) إذن ضد تبعية حسني مبارك وزين العابدين بن علي وعلي صالح !!؟

ولكن ماذا عن دكتاتورية النظام السوري وفساده واستبداده الأمني؟ هنا علينا أن نتوقف قليلاً، فالحرب الكونية الدائرة هناك تحتاج لزاوية رؤية شاملة! نحن هنا لا ندافع عن أحد وإنما نحاول أن نفهم. فهل يستوي من يحاصر غزة، بأسوار من اسمنت وفولاذ، فوق الأرض وتحتها، (مبارك) مع من دغم المقاومة الفلسطينية

(٢٠٠٩) في غزة، واحتضنها سنوات طوال في دمشق، حين لفظها كل حكام العرب، كما دعم المقاومة اللبنانية لتحرير جنوب لبنان، عام ٢٠٠٠ وفي مواجهة هذا العدو ٢٠٠٦؟ واستتباعا هل من المنطق أن يكون الموقف هو نفسه ضد مبارك وضد بشار؟! هذا السؤال لا يعني أي مساس بشرعية الثورة الشعبية ضد أي منهما! فهل هناك من مثقف عربي محترم لا يريد لسوريا ولشعبها الحرية والديمقراطية والعدالة وزوال القمع (الفردى أو الحزبي) عن رقاب الناس، والقضاء على كل أشكال النهب والفساد؟ نحن مع هذا وأكثر حتى آخر رمق وآخر العمر. ولكنني هنا بالضبط ممن يلحون بالسؤال عن سر اصطفاى لندن وباريس والناٲو التركي، ومعهم بالتبعية الدوحة والرياض، وجميعهم بالإمرة خلف واشنطن غوانتنامو وابو غريب، كي ينتصروا لحرية الشعب السوري! ويحمون دمه!!

فقط هل هناك من يخبرنا لم لم يسأل أحد من هؤلاء المناصرين، من أصدقاء سوريا، عن دماء أهلنا في ميادين اللؤلؤة والتحرير والتغيير والقطيف في المنامة وتعز وصنعا وعسير، ولا نريد أن نذكر فلسطين غزة والمستوطنات! ولن نسألکم عن تهويد القدس التي بارك الله حولها!!!

زمان علمنا ماوتسي تونج: "حين تجد موقفك متقاطعا مع الأعداء عليك أن تراجع حساباتك". وفي حالتنا الملتبسة بالاختراقات هذه الأيام، نكاد نجد أنفسنا في دبابة أميركية يقودها سائق أسود في بيت أبيض، ومحشورين إلى جانب صهاينة فرنسيين وانجليز و(ناتوي) تركي صغير، ومع روائح غبي نطف عربية فاقعة الحرية! وهنا بالضبط على كل منّا أن يتحسس ضميره وموقفه وخذقه..

nazihabunidal@hotmail.com

الهوامش:

- (١) سمير أمين، الحوار المتمدن، العدد ٣٣٤٨، ٢٧/٤/٢٠١١.
- (٢) الشروق المصرية، ٢/١٠/٢٠١١.
- (٣) مريم نجمة، مركز دراسات وأبحاث الماركسية واليسار، ١٤/٩/٢٠٠٥.
- (٤) د. محمد أبو حمور، صحيفة الدستور الأردنية، ٢٩/١/٢٠١٢.
- (٥) د. هناع عبید، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٨٧، كانون الثاني ٢٠١٢.
- (٦) كارل ماركس، في رسالة بعث بها الى إنجلز أكد فيها أن النظام البريطاني سيهتز عندما يفقد إيرلندا
- (٧) أخبار مصر، ٣١/٥/٢٠١٣.
- (٨) الحوار المتمدن، ٨/٢/٢٠١٣.
- (٩) أوردته صحيفة الشرق الأوسط، ٣٠/٣/٢٠١٣.
- (١٠) نزيه أبو نضال، الرأي الأردنية، ٩/٩/٢٠١١.
- (١١) رفعت السيد أحمد، مصر الجديدة، ١٠/٧/٢٠١١.
- (١٢) مجلة الويكلي ستاندرد الأمريكية في ١/١٢/٢٠١١.